

الجيش الجزائري خلال العهد العثماني

The Algerien Army During the Ottaman era

أد شعباني بدر الدين

جامعة قسنطينة

الملخص :

طريق النصر مسدود دائما أمام المتشبهين بالأفكار والمفاهيم القديمة، والمعيقين للابتكار والتجديد، ومواكبة العصر تعني الجاهزية أي جاهزيتنا لما يستجد من أحداث. ويعمل موضوع الجيش الجزائري خلال العهد العثماني على استحضار التاريخ كشاهد على مدى فاعلية الجاهزية التي تعتمد على التفسير الذكي للماضي، وصولا إلى وضع معالم واضحة لخريطة المستقبل، ولا جرم أن أصدق معيار لكفاءة أي قيادة عسكرية هو مدى نجاحها في الاستثمار المادي والمعنوي لما تتميز به القوات الموضوعة تحت تصرفها، وبخاصة تفجير الطاقات الكامنة في هذه القوات.

الكلمات المفتاحية:

أوجاق الجزائر - دار الجهاد - الطائفة - الانكشارية - الصباحية - حرس الحدود - كوروغلي.

Abstract:

The victory road is always blocked in ahead of those who cling to old ideas and concepts, and they obstruct innovation and renewal, and keeping on his era means readiness namely our readiness for new event. And the subject of the Algerian army during the ottoman period evokes history as a witness range to the effectiveness of readiness, which depends on the clever interpretation of the past, and without doubt that the more truthful criterion of any military command is the extent of its success in the material and moral investment of the characteristics of the forces at its' position disposal, and especially the detonation of the energeral potential in these forces.

Key Words :

Algerian's oudjak – Dar al-jihad – The taifa – The janissaries –The sipahis – serhad kulu – Koulougli.

مقدمة:

تتحضر الأمم عندما تواكب تطورات عصرها أما الأمم التي تقود عصرها فهي السبابة إلى الابتكار في مختلف مجالات الحياة، وفي عصر الاعتماد المطلق على العقل، فإن الأمثلة التاريخية الخاصة، ستظهر بأن ما هو غير متوقع في الحرب سيبقى دائماً الحدوث، وسيبقى النصر على الأغلب حليفاً له، وإنه لمن المفيد أن نتذكر ذلك، وأن السياسيين والعسكريين يميلون دائماً إلى الاعتقاد بأن كل شيء سيحدث في المستقبل تماماً كما فكروا وخططوا له، ثم تظهر أسباب جوهريّة لا يمكن دحضها تبرر خطأ تلك التنبؤات والاعتقادات.

ويتعلم الجنود التكتيك، والاشتباك في الميدان، وكيف يتحركون تحت نيران العدو، عن طريق الممارسة العملية في حقول التدريب وفي المعركة، ولكنهم يستطيعون التعلم كذلك من خلال القراءة عن الماضي. إذ ما من امرئ يعرف عن مهنته أو حرفته الخاصة بشكل جيد ما لم يعرف كيف تعود الناس أن يفعلوا هذه الأشياء في ظل العهود الماضية المختلفة جدا، والتي لا تختلف كثيرا في جوهرها عما يحاول فعله اليوم.

فأثناء محاولات تعلمك الكتابة، يعلمونك في المدرسة كيف كان الناس يكتبون في الماضي. وأثناء محاولاتك لتعلم القتال، لن يضيع وقتك سدى وأنت تتعلم شيئا ما عن الأدوات والآلات التي كان الناس يقاتلون بها في الماضي البعيد، وتتعلم كيفية تغيير طرقهم في الاستفادة من هذه الأشياء¹.

وقد جاء في تقرير قدمه الجنرال دوغلاس ماك آرثر إلى وزير الحربية في واشنطن بتاريخ 30 جوان 1935 ما يلي: «إن الجندية مضطرة، أكثر من معظم المهن الأخرى، إلى الاعتماد على التفسير الذي للماضي، وصولا إلى معالم وضع خريطة المستقبل. والعسكري، وهو المحروم إبان السلم من فرصة التعلم الذاتي عن طريق الممارسة الفعلية لحرفته، هذا العسكري يستغل لأقصى حد ما هو مسجل تاريخيا في تأكيد جاهزيته، وجاهزية قيادته من أجل العمل بكفاءة في الحالات الطارئة. فيطبق الحقائق المستخلصة من التحليل التاريخي على ظروف الحاضر، وعلى المستقبل الوشيك، مطورا بذلك تركيبا لما يصح من أسلوب وتنظيم وعقيدة».

ومن هذا القبيل جاء الخوض في موضوع الجيش الجزائري في العهد العثماني كونه إيالة من الإيالات العثمانية في ذلك العهد، فما التحولات الجيوسياسية والجيوسراتيجية التي عرفتھا كل من الدولة العثمانية والمغرب الإسلامي؟ وما الظروف الطبيعية والتاريخية التي جمعت الجيشين؟ وما مدى استفادة الجيش الجزائري من علاقته بالجيش العثماني في تأكيد جاهزيته؟

أولا- طبيعة المرحلة:

عرفت هذه المرحلة الأفول التدريجي لسلاح لطالما كان السيد بلا منازع في ميادين القتال، وظهور سلاح جديد سرعان ما أخذ يفرض نفسه كبديل عنه لكسب المعارك والحروب، ويتعلق الأمر بالسلاح الأبيض ممثلا في السيف الذي فقد مكانته تدريجيا في الحروب تاركا المجال للسلاح الناري العامل بالبارود، والمتمثل في البندقية والمدفع.

وعليه كان التفوق والغلبة للجيش الأكثر انضباطا، وتنظيما، وجاهزية، وبخاصة تلك التي عرفت كيف تعيد ضبط خططها وتكتيكاتها العسكرية وتنظيم وحدات فرقها، وسراياها، وفيلقها، لتتأقلم وتستفيد بصورة أفضل من هذه الأسلحة الحديثة للحصول على نجاعة أكثر في ميادين الحروب، ومن بين العوامل التي ساعدت على ترسيخ وتطوير الدولة العثمانية تأسيس جيش المشاة «يايا» المستقل عن وحدات الفرسان شبه العسكرية القبلية، والذي أصبح يعرف فيما بعد بـ: يني تشري أو الإنكشاري، أي نظامي جديد أو الجيش النظامي الجديد، والذي انعكس تنظيمه على الجيش الجزائري باعتبارها من إيالات الدولة العثمانية في هذه الفترة التاريخية.

ففي الفترة الكلاسيكية للإمبراطورية العثمانية كان فرسان الإيالات -(الولايات)-، أصحاب التيمارات يشكلون أغلبية الجيش العثماني، ولقد كان السباهي (Sepahi) فارساً نموذجياً للعصر الوسيط يستعمل الأسلحة التقليدية من سيف، ورمح، ونبال، بينما كان المشاة من النظام الجديد أو الإنكشارية وحدهم من يحق لهم استخدام الأسلحة النارية.²

ولقد جاء هذا الترتيب الجديد في التنظيم العسكري والحربي بعد أن كان الجيش في عهد عثمان كالجيش السلجوقي في مراحله الأولى من الفتوحات يتألف من وحدات شبه عسكرية قبلية تشكلت بناء على قاعدة: « من كل قبيلة وحدة عسكرية»، وعملياً كان كل فرد من القبيلة بعد بلوغه سن الرشد يصبح محارباً، فيتوجب عليه المشاركة في الإجراءات الحربية لدى رئيس التحالف القبلي، وبقي الجيش على هذا النمط حتى عهد أورخان.

ولا بد أن نشير إلى أن جيش الخيالة لدى السكان الرحل كان يمتاز تقليدياً بقدرته الحربية العالية وسرعة حركته الكبيرة إذ كان من السهل جمعه، وحشده في مكان معين بغية توجيه غارة فجائية على العدو، بيد أن وحدات الفرسان شبه العسكرية لدى البيكوات العثمانيين الأوليين سرعان ما كانت تفقد علاقاتها مع المنظمة الحربية القبلية.

وفي البداية كان يرأس الجيش العثماني، كما هو في كل الشعوب البدوية بما فيهم جنكيز خان، العشريون (أنباشي) والمثويون (يوزباشي)، والألفيون (بنباشي)، وكان في جيش المغول التيمنيكيون الذين كانوا يرأسون أفواجا من عشرة آلاف مقاتل، كان الأول يرأس الجناح الأيسر، والثاني الجناح الأيمن، والثالث كان يرأس «العسكر الأوسط»، وفيما بعد نظم الجيش العثماني على هذا النمط.³

واعتباراً لضرورة إجراء الحصار المستمرة والطويلة التي تحتاج إلى كميات هائلة من عمليات الحفر كان على الحاكم العثماني أورخان أن يزود جيشه بالمشاة الذين لم يتم تجنيدهم إلا ضمن الفلاحين سكان المدن الخاضعة الذين يدفعون إتاوات، وكان جيش أورخان هذا مكوناً من قوات خفيفة وثقيلة من المشاة، وتفيد البيانات التي حفظها المؤرخون العثمانيون الأوائل أن جيش المشاة «يايا» كان منظماً، بإرادة أورخان الذي سعى إلى مضاعفة جيشه عددياً، وكان مكوناً من متطوعي رعايا البايك العثماني، حيث يتم تسجيل الراغبين في الالتحاق به.

لقد كانت الحاجة الملحة إلى محاصرة القلاع الكثيرة السبب الرئيس في إنشاء تنظيم جيش المشاة. وكان الملتحقون بهذا الجيش يقبضون أجوراً، ولا تتم خدمتهم العسكرية إلا عند سير الحملة، وبعد انتهاء الحرب كان عليهم العودة إلى أوطانهم لممارسة الزراعة، كما كان المجندون في جيش «يايا» يعفون من الضرائب.⁴

ثم بقيت الأمور على حالها حتى بداية عهد حكم مراد الأول حيث وضعت أسس لثلاثة أنواع من التشكيلات الحربية وهي:

- وحدات الترك شبه العسكرية الفلاحية يايا، التي كانت تجند للخدمة العسكرية مراراً، وتتمتع بتسهيلات ضريبية على هذا.

- وفيلق المشاة (الألف) المكون من المسيحيين المعتنقين للإسلام، الذين كانوا يخدمون ويقبضون مقابل ذلك الأجور.

- ثم فيلق الحرس من المحاربين الغلمان (العبيد)، الذين كانوا يشكلون حرسا شخصيا للحاكم العثماني.

أما الشمال الإفريقي فقد أصبح منذ أواخر القرن الخامس عشر مرتعا للفتن، وموطنا للقلائل والاضطرابات، وقد مزقت الفوضى أوصاله، وعبث غزاة الاسبان بسواحل وأهم مدنه عبثاً كان وصمة وعارا على صفحات التاريخ، وبلغت الشيخوخة بالدول الإسلامية الثلاثة مبلغا أوصلها درجة الموت. فدولة الحفصيين التي ازدهرت وأينعت بتونس الخضراء - وكانت من أهم دول الإسلام ومن أشدها قوة وبأسا - قد تضاءلت ونخر سوس الشقاق عظامها.



الجيش الإنكشاري أثناء محاصرة لإحدى القلاع



الجيش الإنكشاري في عهد السلطان سليم الثالث

ودولة بني عبد الواد في تلمسان وقد كانت من أعظم الدول الراقية التي أخرجت للناس قوة مادية وسمواً في العلوم والآداب والمدنية، والتي اتخذ صاحبها يغمراسن الآلة ورتب الجنود والمسالح واستلحق العساكر من الروم، والغز وناشئه، قد انحطت إلى أسفل دركات الضعف والانحطاط. ودولة بني مرين الزاهية الزاهرة صاحبة الآثار العظمى والبدائع العمرانية الفتانة أصابها بفاس الانحلال وضعفت قواها المادية والمعنوية وأشرفت على الاضمحلال⁵.

وأمام هذا الارتباك ومنذ حروب الاسترداد بشبه الجزيرة الايبيرية، وسقوط إمارة بني نصر آخر معاقل الخلافة الإسلامية بالأندلس سنة 1492م كانت دولة اسبانيا قد تنمرت ولم تزل دماء شهداء الأندلس عالقة بأدرانها، ورمت أنظار الطمع والجشع على الشمال الإفريقي فكادت تثبت أقدام المسيحية المتعصبة الفتاكة بهذه الأقطار لولا أن الله نظر إلى مسلمي الشمال الإفريقي نظرة رحمة - وهو الرؤوف الرحيم - فمُنَّ عليهم بالحادئين الجليلين في ذلك العصر الحالك السواد:

- حادث ظهور القوة التركية الناشئة أيام السلطان الأكبر سليم الأول تحت إمرة سيد الغزاة المجاهدين بربروس خير الدين فأنقذ تونس والجزائر من الغزو الإسباني.

-وحدث ظهور دولة الأشراف السعديين الشامخة الذرى ببلاد المغرب الأقصى⁶، والتي وقفت حجرة عثرة في وجه الغزو البرتغالي.

لقد كان إنقاذ بربروس للجزائر بمثابة ميلاد الدولة الجزائرية الحقيقية، لأول مرة في تاريخها، دولة ذات معالم معينة، وحدود مرسومة، فوق تراب تشكلت منه أرض الوطن وتكونت فوقه وحدة سياسية، واقتصادية، واجتماعية بعد الوحدة الدينية التي كانت القاسم المشترك الأعظم لقبائله وعوائله المختلفة.

فقامت على رأسه دولة لا تنتسب لعائلة، ولا لقبيلة، إنما تنتسب لوطن معين، ثم اخترقت هذه الدولة في ميادين الكفاح والجهاد، ثلاثة قرون ونيفا، مرفوعة الرأس خفاقة الأعلام، سائرة ضمن دائرة الخلافة العثمانية نحو استكمال السيادة المطلقة، وتحقيق الاستقلال التام.

وهذه الدولة التي أقامها الشعب بإعانة الأتراك العثمانيين قد ولدت بين فرث الحوادث ودم المعارك العالمية، خلال عصر تغير فيه وجه الدنيا باكتشاف العالم الجديد، وتغيرت فيه موازين القوى بين الشرق والغرب، وتغيرت فيه أساليب الحياة، ونشأ فيه الصراع الاستعماري الأكبر بين الدول البحرية العظمى.

واصطدمت فيه الامبراطوريات الكبرى بعضها ببعض، ووقفت فيه المسيحية والإسلام وجهها لوجه، في معركة بقاء أو فناء، وأخذت فيه العقول تنطلق من العقال، والشعوب تفجر طاقاتها من أجل الحصول على الحرية والكرامة. فكان انبثاق فجر دولتنا الجزائرية الأولى، وليد ذلك التفاعل، ونتيجة حتمية لذلك الصراع العنيف⁷.

وقد كان الجيش الجزائري بشقيه البري والبحري العمود الفقري الذي قامت عليه الدولة الجزائرية، فقد قام الإسبان وحلفاؤهم بأعمال قتل وتدمير يندى لها الجبين على السواحل الأفريقية، ثم نسبوا الصفات البشعة إلى قراصنة الجزائر والبربر، وتناسوا عن قصد حقدهم وكرهيتهم وقتلهم النساء والأطفال المسلمين، بعد أن أغرقوا ما يزيد عن ثلاثة ملايين نسمة من مسلمي الأندلس بسواحل البحر المتوسط.

لقد كانت القرصنة أساس الأوجاق الغربي، وكانت غزواتهم تعتبر نوعا من الجهاد، وباتحاد رياس البحر الأمازيغ مع الرياس الأتراك غدت البحرية العثمانية قوة ضاربة يحسب لها حساب عند حكومات أوروبا قاطبة، واتخذت الجزائر عاصمة لهذه الدولة الناشئة التي سميت «الجزائر المحروسة» ثم أطلق عليها اسم: «دار الجهاد» منذ 1516 إلى 1830م، وخلال فترة وجيزة تحولت الجزائر إلى دولة ذات حدود مرسومة وعاصمة حصينة، وجيوش عديدة وبحرية نشطة أكسبتها وزنا دوليا مرموقا ذات نظم سياسية جديدة بالنسبة لما كان مألوفا في أوروبا، ويضاف إلى هذا كله أن الحكم الجديد تحدى بنجاح الدول المسيحية التي اضطرت إلى محاربته أو مهادنته أو شراء محالفته⁸.

ثانيا- تنظيم جيش الإيالة الجزائرية:

كان السلطان بمثابة القائد العام للجيش العثماني، وكان الصدر الأعظم نائبه، وفيما بعد أصبح الصدر الأعظم يكلف رسميا بقيادة الجيش العثماني المتكون أساسا من:

- عبيد الباب (القايي قولي)

- عسكر الإيالة.

- القوات البحرية.

وتقسم هذه الأقسام الثلاثة إلى عدة أقسام، كل منها يحمل اسما خاصا به ووظيفة خاصة. وتنضوي هذه القوات في مجموعها تحت اسم الأوجاق، ويسمى أكبر ضباطها آغا الأوجاق، والأوجاق الواحد يتكون من: الإنكشاري، الجعجعي (الجندي المدرع) الطوبجي (المدفعي) العربجي (العربات) القليونجي (البحري وهو نسبة إلى نوع من السفن).

وقد كان عسكر الإيالة صورة مستنسخة عن العسكر العثماني، وفي عهد دايات الجزائر رغم أن الداي كان يمثل رأس السلطة في المدينة، ورغم أنه القائد العام للإيالة إلا أنه لم تكن له سلطة سوى الأمر بتطبيق القوانين المدنية والعسكرية، والإشراف على تنظيم الجيوش، ومراسلة القبائل المختلفة قصد التهدة والمحافظة على الأمن، وحمايتها من سائر أنواع الظلم وذلك بأن يبرز لها منافع السلم ومساوئ الحرب، وكذا مراسلة الدول للحفاظ على الأمن في الداخل والخارج.

كما كان يشرف على المالية وعلى التنظيمات الإدارية التابعة لها بالإضافة إلى تعيين سبعة وزراء من مساعديه المقربين، اللذين يختارهم بنفسه من الأتراك وهم:

- الخزناسجي (الخزندار): وهو مسؤول المالية، يساعده أربعة كتاب يتراشهم باش دفتر.

- الآغا: وهو رئيس الجيوش البرية.

- وكيل الحرج: وهو المكلف بالأسلحة الداخلية والخارجية وصناعتها، والمتصرف في شؤون الدولة العسكرية برا وبحرا.

- بيت المالجي: وهو المكلف بالمواريث.

- خوجة الخيل: وهو الضابط الذي يشرف على الشرطة العامة.

- شيخ الإسلام: وهو المفتي الحنفي، وكان أول الأمر يعين من إسطنبول.

- المقطاعجي أو المكتابجي: وهو كاتب الدولة له درجة شيخ الإسلام، ومن شروطه أن يكون فقيها وعالما، وقد يعين المكتابجي من الأهالي.

كما يعين حاشيته وهم مجموعة من الموظفين يتقاضون نفس المرتب كما يلي:

- خوجة الباب: يفتح أبواب القصر ويغلقها.

- الأشجي باشي: رئيس الطباخين.
- خوجة السر: وهو الكاتب الخاص الذي يستعين به الداوي.
- خوجة الرحبة: ويشرف على أسواق الحبوب.
- خوجة الملح: وهو المسؤول عن تنظيم هذه الأسواق الحيوية.
- قائد المرسى (الكمرك): وهو الذي يراقب مختلف واردات البلاد وصادراتها⁹.
- أما عساكر الإيالة الجزائرية فكانت تتألف مما يلي:

1- العساكر البحرية:

وهم نخبة من «الزبنطوط» أي العزاب يتكونون غالبا من تعداد قدره ألف رجل فما فوق، وأغلبهم من المسيحيين المعتنقين لدين الإسلام¹⁰، ويتألفون من عدة أوجاق، فمنهم الجنود العاملون في الترسانة (أي دار صناعة السفن) ويسمون أوجاق الترسانة، وأساسهم مؤلف من صانعي السفن، ومنهم صنف الحرب (أي المحاربون في السفن)، وهذان الصنفان يعملان تحت إمرة قائد الأسطول أو الرئيس ويعرف كذلك بالقبطان باشا¹¹

وكان يطلق على رياس البحر اسم الطائفة، حيث كانت تجند رجالا من شتى طبقات الشعب، فيصبحون بحارة ماهرين، ولم تكن هذه الطائفة خاضعة خضوعا تاما للنظام الإداري، بل كان لها حكم خاص بها، فهي بمثابة النقابة لربابنة البحر حيث كونت هذه الطائفة جمعية تدعى بـ: «نقابة الرياس»¹².

وكانت تحوي إضافة إلى البحارة المحليين بحارة من المشرق الإسلامي، ومن المهجرين الأندلسيين، ومنذ القرن السادس عشر ميلادي التحق بهم فرق المهتدين أو كما يعرفون أيضا بالأعلاج، وهم الذين أسلموا من الأمم المسيحية المختلفة ووظفوا في البحرية الجزائرية. وقد أعطى الجزائريون أهمية كبرى لسفنهم وعملوا باستمرار على تطويرها وتنظيمها حتى غدت سفن الأوجاق في غاية التنظيم والترتيب. وفي سنة 988 هـ/1580م بلغ عدد السفن الجزائرية خمسا وثلاثين قارغة وخمسا وعشرين فرقاطة إضافة إلى عدد من السفن الأخرى وكلها مسلحة بأسلحة متنوعة.

لقد كذب مؤسسو الأسطول الجزائري الشائعات والتهم التي أطلقها عليهم البعض حينما وصفوهم بلصوص البحر فمصدر هذه الشائعات الكاذبة جاءت من المؤرخين الإسبان الذين أحجفوا كثيرا بحق الرياس الجزائريين لما وصفوا أعمالهم بالوحشية، وتناسوا عن قصد أن الحروب آنذاك كانت تتصف بالقوة والشدة.

كما أن دورهم كان يتفق مع الوضع الجيوسياسي والجيوسراتيجي الجديد الذي عرفته هذه المرحلة التاريخية، ولتأقلمهم السريع مع هذه التحولات، ازدادت شعبيتهم لدى الأهالي بموجب بطولاتهم وحرفتهم -القرصنة- التي جعلتهم في مركز قوة ومن الأغنياء، فكان هؤلاء البحارة سادة في البلاد

وعماد المملكة بسبب جاهزيتهم للعمل بكفاءة في الحالات الطارئة، وبسبب جلبهم للذهب، والفضة والثروات بطريق القرصنة.

ولضبط 12 ألف إنكشاري الموجودين بالجزائر، كان من الضروري جلب فرق تركية، حيث كان لزاما على المتطوع في الإنكشارية الجزائرية أن يحصل أولا على جنسية الأتراك، ثم الإذن من الباب العالي لأن السلطان لا يسمح للرعية بمغادرة البلاد ما لم يقرروا به سيذا وسلطانا عليهم¹³.

وقد تأسس أوجاق الجزائر من مجموع الإنكشاريين ورفاقهم من الجزائريين، وبخاصة سكان شرق الإيالة الذين آزرروا ونصروا عروج في حروبه ضد الإسبان كقبيلة تكسانة (Texana) من جيغل، والتي أوكل إليها الأتراك تمويل الجيش الإنكشاري بالمطوعين طيلة العهد العثماني بالجزائر¹⁴، ولما تجبر رجال الإنكشارية لم يتمكن رياس السفن، وطواقمها من إخفاء سخطهم، وغضبهم على الإنكشارية، وقد شكل الرئيس خيرالدين باشا مفرزة من المهتدين، ضمت ستمائة شخص وعهد إليها بمهمة الحراسة.

وكان أكثر البحارة من الروم والأرناؤوط (سكان ألبانيا)، وقد تجاوز عددهم ستة آلاف شخص أسند إليهم خيرالدين باشا المدفعية وكلف أحد أصدقائه بالإشراف على هذه القوة، ومع ذلك كان يشرف بنفسه على تدريبها وتجهيزها، وبهذه الطريقة ضمن التوازن بينها وبين الإنكشارية، كما تمكن بواسطتها من تأديب الإنكشارية والمتمردين الخارجين عن طاعته، وأيضا ألزم الأهالي الذين رفضوا دفع ما عليهم من ضرائب.



ميزومورتو أو حاجي حسين بايلر باي الإيالة الجزائرية.

ثم تطورت هذه القوة التي أنشأها خيرالدين باشا تطورا كبيرا بحيث غدت الإنكشارية تخافها وتحسب لها حسابا، وبما أن خيرالدين باشا قد وثق بها، فلم يتدخل في شؤونها، وهي لم ترهقه لا بطلباتها ولا بمشاكلها الداخلية، ولم تتجاوز حدود الصلاحيات الممنوحة لها¹⁵.

ثم قائد عام للأسطول العثماني 1683 - 1688 لقد كان الجيش البحري الجزائري يجهز سفنا صغيرة تشبه سفن الاسبانيين وكانوا يراقبون السواحل ويقومون بنوع من التجارة، وفي نفس الوقت يحتجزون السفن الإسبانية ويقودونها إلى مدينة الجزائر، ولا تدوم هذه الجولات البحرية في العادة أكثر من خمسة أو ستة أيام¹⁶.

وكان الرياس أثناء غزواتهم يحصلون على غنائم كثيرة، وهذه الغنائم كانت تباع للسكان وتوزع

قيمتها حيناً على ذوي الحقوق، وهو ما دفع الجميع إلى إظهار حبهم وإخلاصهم للقراصنة، كونهم المدافعون عن الدين وحماته أيضاً، كما كانت موائد البحارة المحبوبين تستقبل الجميع، فكانت الفائدة تعم سكان الحي وبخاصة الفقراء منهم¹⁷.

أما الخزينة العامة فكانت تأخذ الخمس كنصيب لها وفقاً لما تنص عليه شريعتنا، على أن هذا الخمس لم يكن تاماً أبداً لأن الأشياء الثمينة كانت تؤخذ قبل الاطلاع على الغنائم، وفي كثير من الأحيان تعلم الحكومة بذلك، ولكنها تغض الطرف حتى لا تفشل هؤلاء البؤساء الذين يعرضون أنفسهم للموت إما تعصبا للدين، وإما رغبة في الحصول على الغنيمة، وكانت حكومة الأتراك تعلم كل العلم أنها إذ تشجع السكان في إنجاز مشاريعهم هذه وتدفعهم في طريق الثروة، إنما تعمل على إثراء نفسها¹⁸.

لقد عمل رياس البحر على ازدهار الاقتصاد وهو دخل الدولة حتى أصبحت من أثرى بلدان العالم ودوله في العهد العثماني، وشوهد لأكثر من ثلاثمائة سنة في أسواق الجزائر الذهب المكسيكي، والماس الهندي وحرير الشرق، وأقمشة وفضة البيرو، وغيرها من المعادن الثمينة العائدة لأمم متعددة، وكانت هذه الأشياء تتدفق يومياً على الجزائر مثل النهر، كما كانت السفن ذات الأعلام المختلفة تدخل وتخرج من ميناء الجزائر، وهي مليئة بالأسرى، والأرزاق، والثروات الاحتياطية، وبهذا الشكل غدت الخزينة الجزائرية مليئة بالنقود المتعددة الجنسيات. ووقفوا أثناء المعارك في الصف الأول، كما حدث في حرب مالطة وتونس ولبيناتو، فكسبوا بشجاعتهم ومواقفهم الإنسانية ثقة الجميع، وعمت شهرتهم مختلف الأرجاء والأصقاع.

2- الخيالة المحلية:

بعد طرد الإسبان من ديار الشمال الإفريقي استفادت الدولة من فرسان القبائل بعد أن وزعت عليهم أملاكاً من نوع التيمار والزعاميت أي حولتهم إلى جنود السباهية أو الصبايحية، وهم جنود أتراك لا يعملون بمدينة الجزائر، بل هم مخصصون للعمل بجانب البايات، ولا يسمح للأتراك إلا بصعوبة ترك العسكرية في فرق المشاة والانضمام للفرسان، لأن فرسان الدولة كلهم من العرب، والسباهية تحت إمرة باش آغا المستقر بعاصمة الجزائر¹⁹.

ويتشكل هذا الصنف من العساكر بحسب قانون الزعاميت والتيمار، ويتكفل بتأمينهم وتسليحهم أصحاب الزعاميت والتيمار. ذلك أن التراب العثماني قسم إلى ثلاثة أقسام:

- ملك خاص: ويوزع على الوزراء وإمرة الأمراء (البكلربكي) والأمراء، ويقدر دخله بأكثر من 100 ألف أقجة.

- الزعاميت: ويقدر دخله من عشرين أقجة إلى 99,999 أقجة.

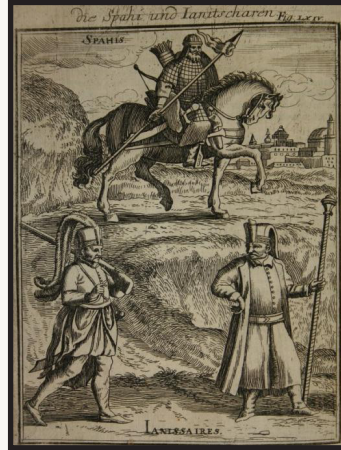
- التيمار: ويقدر دخله من أقة واحدة إلى 20 ألف أقة.

وفي العرف العثماني يكلف أصحاب الزعاميت والتيمار بالمشاركة في كافة الحروب التي تخوضها الدولة، وهم مكلفون كذلك بتجهيز خيال بكامل سلاحه وعتاده عن كل ثلاثة آلاف أقة. أما أصحاب الملك الخاص فمكلفون بتجهيز خيال بكامل سلاحه وعتاده عن كل خمسة آلاف أقة. وفي ولاية قبطان باشا كلف أصحاب الملك الخاص، والزعاميت والتيمار بتقديم الجنود إلى القوات البحرية، وبهذا تشكلت عساكر البايك من الدوائر والمخازنية وهم من الكراغلة وقبائل العرب، وأغا الصبايحية وهم من الأتراك.

وكان لكل وطن (ناحية) قائد يعمل تحت حكم الآغا، وعلى رأس كل قبيلة من القبائل البدوية والحضرية آغا يعرف باسم المجموعة التي يقودها ويعمل تحت حكمه كذلك، وهم بدورهم تابعين للآغا، وهو القائد العام للجند، وهو الذي يسميهم. وأهل هذه الأوطان أكثرهم صبايحية الآغا، يركبون معه أينما توجه، وهم عسكره الخيالة ويتميزون على إخوانهم العرب من الرعية، فإنهم لا تلحقهم المطالب المخزنية إلا العشور، ولا يلحقهم القواد، وكبرأؤهم قواد العشور²⁰.



السباهي أو فرسان
السلطان المحاربين
بالأسلحة التقليدية
يقابلهم مشاة الانكشارية
كفرقة جديدة تعمل
بالأسلحة الحديثة



وبحسب قانون التيمار والزعاميت دائماً فإنه على هؤلاء الفرسان أن يقوموا بمهمات أنفسهم ومهمات خيولهم، ولهم امتيازات عديدة، منها أنهم إذا كانوا أصحاب أملاك فإن أملاكهم لا تدفع الضرائب، وهم تحت حماية فعالة ولهم عوائد كثيرة يتناولونها. وإلى جانب هؤلاء توجد فرقة من الخيالة العرب في مدينة الجزائر تحت إمرة الآغا، وفي ساعة الحرب أو الحملات ينظم البايات إليه ويعملون تحت إمرته، والسباهية العرب الذين تحت إمرة الآغا عليهم كذلك أن يقوموا بمهماتهم، إنما لهم عوائد ومنح كثيرة يتقاضونها²¹.

وقد قسمت سلطة التسيير لهذه الفرق المخزنية من الصبايحية (السباهي) بين الآغا وخوجة الخيل على النحو التالي:

أ- الآغا وسلطته:

للآغا أربعة كبراء من العرب: باش شاوش، وكاهيته، وباش علام، وباش مكاحلي، يقفون بين يديه في الحكومة، ويفهمونه أمور الشكاية ويُعيّنون الصبايحية للأشغال أو المكاتب وتخليص الحقوق، والاتيان باللصوص وقطاع الطرق، وتمتد سلطته على الرعية من منطقة بحلولان إلى يسر، ويحده شرقاً: سباو، وغرباً: باي تيطري، ومن الناحية الغربية من جهة البحر تنس. لكن سكان تلك الجبال (جبال الظهرة) كلهم عصاة لا يتصرف فيهم الآغا ولا الباي. فأما بحلولان فإن فيه زمول وهم فرقة مستقرة من الفرسان العرب، ومن تبعهم من العبيد الموالى لأهل البلاد، وغيرهم من المماليك والراعايا.

فإذا ما اجتمع عدد منهم في البلاد فإن الأمير يبعث بهم إلى بحلولان، وإلى زمول أخرى في سباو، فيسكنونهم هناك ويعطونهم تلك البلاد يحرثونها، ويكسونهم كل عام، ويعطونهم الخيل والسلاح، أي يحولونهم بدورهم إلى جنود السباهي أو الصبايحية. وهم يعسون (يحرسون) هناك مقابلين للجبال، أما في بحلولان فإنهم مقابلون لجبل بني مناد وجبل سماته، وكل زمالة من تلك الزمول عليها قائد يولى من قبل الآغا. وإذا ركب الآغا إلى موضع ركبوا معه، ولا يدفعون شيئاً من اللوازم والمطالب المخزنية²².

وللآغا قائد في وطن حجوط، يتصرف في بني مناد، وسماته، ومزاية، ومسعود، وبني صالح، وبني ميصرة، إلى وادي الحراش، وهو أكبر القيادة، له قائد ثالث يتصرف في الخشنة، يتصرف في الوطن وفي جبال عمال، وبني عيشة إلى وطن يسر يحده سباو، ورغم أن قائد سباو هو الذي يسمى هذا القائد إلا أن الآغا هو الذي يتصرف فيه، وقائد خامس في وطن بني جعاد، وقائد سادس في وطن بني سليمان وبني خليفة، وهم جبال وأهلهم أهل خير، وقائد سابع في عريب، وهذا الوطن أكثره أهل عمور، وهم أهل خير وورع.

وقد رتب هؤلاء القواد السبعة بحسب قانون الزعاميت والتيمار كما يلي: قائد بني خليل، قائد بني موسى، قائد الخشنة، قائد بني جعاد، قائد بني سليمان، قائد عريب، قائد حجوط. وهؤلاء القواد يلبسون الخلعة يوم عيد الأضحى، ويدفع كل واحد منهم لزمة الوطن وعوائده. وهذه اللزمة يفرضها الأشياخ في كل وطن، وفي كل وطن قائد العشور ولا دخل للقائد فيه، بل هو تابع رأساً لكتب العشور بالجزائر.

ب- خوجة الخيل وسلطته:

أما خوجة الخيل فإن له رعية من عرب الصحراء، وهم نجوع أو شيوخ القبائل، فأولهم: نجع رحمان، ونجع الزناخرة، ونجع اليواعيش، وكثير من النجوع الأخرى، فيدفعون له الخراج والزكاة إلا أنهم يمنعون الزكاة.

ولخوجة الخيل قائد يسمونه قائد العرب مستقره متيجة، وله أعوان وهو المتصرف على هذه النجوع، وله أشياخ لجمع المطالب المخزنية، كما له أتباع يركبون الخيل يسمونهم السراجة، وعليهم كبراء من العرب يسمونهم المقاديم، وهم مع خوجة الخيل في حطه وترحاله، ويقفون بين يديه لوقت الحكم لأجل الاشتغال، وإذا أراد أمرا فإنه يعين رجلا أو اثنين من السراجة ليأتوا بخصم المشتكي أو يرسلهم لحمل المكاتب للرعية²³.

وبهذا تكونت فرق الخيالة الجزائرية المحاربة على النمط التقليدي، وهي تعمل بنفس الأسلوب الذي تعمل به فرق الصباحية أو فرق السباهي في الجيش العثماني.

3- المشاة العثمانيين (الجيش الإنكشاري):

لقد كان وجه الابتكار أو الحيلة في الجيش العثماني أنه استحدث جيشا نظاميا جديدا يعمل بأسلحة حديثة هي خير ما توصلت إليه مبتكرات عصره، وهي الأسلحة النارية، أضاف إلى ذلك أنه وفق في جعله على كفاءة عالية في ميادين القتال لما كان يقوم به من تدريبات وفق أساليب عصرية مبتكرة، وبذلك كان السباق إلى إنشاء أول جيش نظامي احترافي في العالم، عرف تحت اسم الجيش الجديد (يني تشري) فكان عماد الدولة العثمانية، وركزتها الأولى في جميع فتوحاتها، ثم أداة حكمها في مختلف ولاياتها.

وقد جعل من فيلق المسيحيين المعتنقين للإسلام أساسا لتشكيل «الجيش الجديد» الذي استوعب مميزات وواجبات التشكيلات هذه أو تلك، واستمد من الدول الإسلامية المجاورة مثل دولة السلاجقة والمماليك تنظيم الحرس المكون من «الغلان».

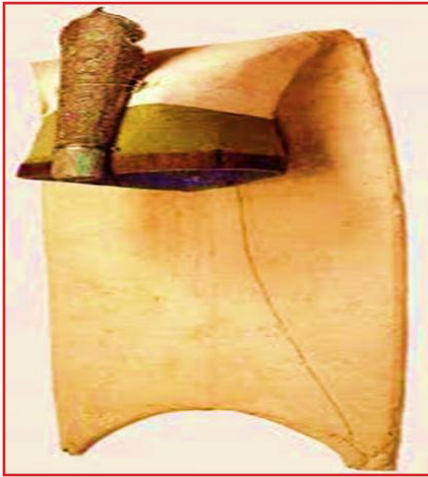
كما أوكل للجيش الجديد «يني تشري» تنفيذ واجبات حرس السلطان الشخصي، ويظهر أنه تقليد لأسلوب الحكام المسلمين السابقين في اتخاذهم حرسهم الخاص، ولم يكن الفرق إلا في عناصر الحرس. فالأتراك العثمانيون كانوا يشكلون هذا الحرس من المسيحيين المعتنقين للإسلام، وكان هؤلاء الأسرى أبناء أمم مختلفة، ويعود ذلك إلى تعدد البلاد التي وقعت عليها الفتوحات²⁴.

لقد ارتبط تأسيس الجيش الإنكشاري بتطور التنظيم الدولي العثماني وإدراك البيكوات العثمانيين قيمتهم السياسية كحكام مسلمين، وسعيهم بواسطة تقليد الحكام المسلمين الآخرين نحو الترقى إلى مستوى الحكام المسلمين المعاصرين، لذا فقد مدوا حدود سلطانهم إلى مختلف دول العالم الإسلامي في مواجهة المسيحية الثائرة، والتعصب الديني الصليبي.

وقد جعل من البلاط قوة محايدة مستقلة عن التقاليد القبلية، وكان وجوده توطيدا لسلطة الحاكم

العثماني، وتقيدا لإمكانات الجيش السباهي، وعلى الأرجح كان للقيمة العسكرية تأثير في سير أمور الإدارة الحكومية، فـجيش البلاط هو الذي وضع أسس حكم البية العثماني، وساعد على ترسيخ تنظيم الدولة الذي تشكل، كما كان أداة عسكرية واجتماعية إضافية بيد الحاكم العثماني لتوطيد سلطته العليا.

وعند حديثنا حول تأسيس الجيش الإنكشاري لا بد أن نشير إلى أن غطاء رأس جنود «الجيش الجديد» أي الإنكشاري كان عبارة عن قلنسوة بيضاء وفي خلفها شريطة عريضة معلقة كانت أشبه بالكلم، وغطاء الرأس هذا شبيه جدا بغطاء رأس «الآخي» في آسيا الوسطى، أضف إلى ذلك أن ولي الأخوة الإسلامية (آخي) علي بن أبي طالب رضي الله عنه الخليفة الرابع والأخير من عداد الخلفاء الراشدين، صهر النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، كان اسم ولي الجيش الإنكشاري كذلك، ولا بد أن الإنكشاريين قد استمدوا ذلك عبر أخوية «البكتاشي» التي كان لها نفوذ عال على الجيش الإنكشاري²⁵.



قلنسوة الإنكشاري

لقد أقر الإنكشاريين عدم الزواج مثلهم مثل الآخي، حيث جاء في مؤلف «مبدئي قانون» أن قوانين وقواعد وسلوك الإنكشاريين هي نفسها التي فرضها حجي بكتاش ولي سحرته، وهي كما يلي: على الإنكشاريين أن لا يتزوجوا وألا يطلقوا لحاهم إلا في الشيخوخة الطاعنة²⁶.

نظام الدفشرمة: كان تأسيس الجيش الإنكشاري في عهد مراد الأول نهاية لتشكيل تنظيمات الدولة الأساسية في البايك العثماني، وأمام التحديات الجديدة للدولة كان لزاما عليها أن تبتكر أسلوبا جديدا للزيادة من تعداد الجيش الجديد، فكان نظام «الدفشرمة» أي الجمع أو القطف المنتهج منذ منتصف القرن الخامس عشر الأسلوب الأنجع في ذلك، وصار غالبا على طرق التجنيد الأخرى لتشكيل الفيلق الإنكشاري، وقد احتفظت الأرشيفات التركية الحكومية بالمرسومات التي فرضت إجراء هذا النوع من التجنيد في المحافظات.

وعرف الصبية الملتحقين بالفيلق الإنكشاري باسم العبيد، كما أطلقت هذه التسمية على الإنكشاريين الذين هم بمنزلة العبيد، والحقيقة أن هذا المصطلح إنما يعكس العملية المبكرة في عمليات التجنيد، حيث كان الفيلق الإنكشاري لا يتم تكميله إلا بالعبيد، أي أن الإنكشاريين قد جندوا بنظام آخر وبالتالي لم يكونوا عبيدا حقا.

ولا يكتب الجنود صكا بالتطوع أو الخدمة في الجيش، بل عندما تنصب خيمة التطوع في بلاد الأتراك يأتي إليها الراغبون، وعند بلوغ العاصمة كانوا ينزلون في منازل أهل المدينة، وفي الصباح يأخذونهم إلى مقر الآغا الإنكشاري حيث يتعرض المجندون للتفتيش «يوقلاما»، حيث يشارك فيه

طبيب (جراح) خاص كان عليه التأكد من عدم وجود المجندين «المختونين» أي المسلمين²⁷.



إنكشاري جزائري

وهناك يأكلون صباحا ومساء إلى أن تحين ساعة الرحيل، لكن بعض الضباط المكلفين من قبل الجزائر بالإتيان بهم يوزعون عليهم أحيانا بعض القروش، ويحدثونهم طويلا عن المستقبل السعيد الذي ينتظرهم، والمغانم الكثيرة التي يغنمونها من القرصنة ضد المسيحيين، وما يكون لهم من امتيازات، وما يستطيعون الحصول عليه من رتب عالية إن قاموا بعملهم بجد وإخلاص.

ولما كان السلطان سليم الأول (1512 - 1520م) قد أخذ على عاتقه مهمة حماية الرعية والوقوف في وجه أطماع ملك إسبانيا اللامتناهية في الأراضي الإسلامية فقد أرسل مع الحجي حسين أحد عبيد المقام العالي إلى الجزائر سيفا مرصعا وسنجقا (علما)، وزوده بألفين (2000) من الإنكشارية و4000 من المتطوعين الأتراك، لتدعيم قوة «خير الدين»، لتثبيت حكمه من جهة، وحماية الجزائر من الهجمات الإسبانية من جهة أخرى، فقبل الرايس «خير الدين بربروس» هدايا

السلطان، ثم جمع ديوانه والأهالي، وأخبرهم بإعلان تبعيته للدولة العثمانية، ومنذ ذلك التاريخ أصبح للجزائر جيش إنكشاري خاص، عرف تحت اسم «أوجاق الجزائر»، بجميع هياكله ومؤسساته وكان استقراره بمدينة الجزائر، حيث بنيت له ثكنات للإيواء ونظمت قوانينه وحددت أجوره.

وكان يطلق على الجندي اسم اليولداش أي الرفيق وغالبا ما كان يقع الإتيان بهم من نواحي أزمير وقرمان، وعندما يقدم للجزائر يقع ضبط اسمه بالدفت الذي يمسكه الباشكاتب، ويقع تعيين بلاده وتسجيل صفته وبنيته، والثكنة التي يسكن بها، والأوداباشي الذي يعمل تحت إمرته، والأورطة (-القسم العسكري)- التي يتبعها من 420 أورطة التي يتألف منها جند الأتراك، وبعد ذلك يكتب أمام اسمه على التوالي الزيادات في مرتبه والملاحظات على خدمته.

وبعدها يتسلم قميصا من القماش الخشن وصدرية وسروالا من القطن ومعطفا من الملف الخشن وشاشية جزائرية وحزاما أحمر وغطاء من الصوف قصيرا ضيقا، وذلك كل ما يتسلمه من البايك، ثم يذهب إلى «الكاشرية» أي الثكنة العسكرية وأصلها «دار الانكشارية» وعدد هذه الكاشرات 12 بمدينة الجزائر، وهناك يتسلم حصيرا لمنامه، والدولة لا تسلم له السلاح إن لم يكن عنده، بل تقدم له على وجه السلف سيفاً وبندقية وزوجا من الفرو، فإن لم يرجعها من بعد ذلك فإن ثمنها يقتطع من جراته²⁸.

وإذ كان مخصصا لإحدى الفرق المعسكرة خارج المدينة فإنه يتسلم نعلين لترقيع حذائه وهو الذي يشتري البارود بنقوده فلا يأخذ إلا رطلا من الرصاص عليه أن يذويه ليصنع منه كريات البندق. وكانت خدمة الجيش مرتبة على ثلاثة مراحل سنويا:

العام الأول: لحماية المدينة والمحافظة على أمنها، وتعرف بالنوبة.

العام الثاني: للخدمة في المعسكرات.

العام الثالث: يعد عطلة لا يلتزمون فيه بأي خدمة عسكرية ولهم الحرية التامة في التنقل أنى يشاؤون.

وعليه فإن الجندي أو اليولداش يترقى بعد الخدمة من جندي بسيط صغير « يني يولداش » أي جندي جديد إلى «أصكي يولداش» أي جندي قديم متمرس، ثم يمكنه بعد ذلك التدرج في المراتب العسكرية كأن يصبح «باش يولداش» أي رئيس فرقة مكونة من 20 إلى 25 جنديا، كما يمكنه التقدم في الرتب حتى يصبح «أودا باش» أي رئيس غرفة برتبة ملازم أو قبطان السرية، ثم «بلوك باشي» أي رئيس قسم برتبة مقدم²⁹. ثم «يني تشري آغاسي» أي آغا الإنكشارية برتبة عقيد، ويعد قائد الإنكشارية أعلى رتبة في الجهاز العسكري.

وكان التجنيد في البداية يتم بين الشجعان والمستقيمين أخلاقيا، ثم أصبح يجمع من بين المشردين والمجرمين الفارين من العدالة، ثم إن تعدد مهمة الجيش الإنكشاري بين العمل العسكري والمهام الإدارية والسياسية، جعلت المجندين يتطلعون إليها، ويعقدون عليها آمالا كبيرة لتحقيق المجد والثروة، ونظرا لهذه الامتيازات التي تمتع بها الإنكشاريين ارتفع تعدادهم بالجزائر إلى حوالي 22 ألفاً، وقد كان هؤلاء الإنكشاريين شجعان لكنهم مغرورون جدا وجهلة، إلا أنهم بنفس الوقت محاربون أقوياء جدا، وإن قيادتهم سهلة إذا كان أمرهم رجلا قويا، ومطيعون ولهم فوائد عديدة إذا أدركت القيادة ذلك.

أما إذا كان أمرهم رجلا ضعيفا، فهم مشاغبون ويحبون تجاوز السلطة وظلام لا يرحمون، لذا فإن قانون العقوبات المتعلق بهم كان ثابتا ويختلف اختلافا تاما عن القانون المدني المرتبط بصورة عامة بالشرع أو العرف أو العادة، ومع ذلك فهؤلاء المغرورون المتعالون بطباعهم، اعتدوا على الأهالي في الجزائر ومارسوا ذلك في كل مكان حلوا به ومع مرور الزمن أصبحوا يتحكمون بمقدرات الجزائر، وشمل ذلك أدنى المراتب حتى أعلاها، في حين اعتبر الأهالي أدنى مرتبة من الإنكشارية وأقل صلاحية³⁰.

ويتألف مشاة الإيالة من المشاة المحليين، وحرس الحدود، وحرس الأرض وهم بغالبيتهم من الخيالة. أما المشاة المحليون وقادتهم بكوات الصناجق، وهم يعينون وضباطهم من قبل باشا الإيالة. وعساكر المشاة تتألف من خمسة أقسام وهم: العزب، والسكبان، واللغمجية، والمترقة، والفصائل المسلمة، وهي تقسم إلى عدة أورطات.

يضاف إلى كل هذا فرق الطوبجية-(المدفعية)-، والتي تراوح عدد سدناتها بين 6 إلى 12 طوبجيا على رأسهم باش طبجي يتلقون منه جميع الأوامر، وكان السدنة يقومون بتنظيف المدافع بعد كل رمية، وتعمير المدفع بالبارود والعبوات في جوفه، ودكها بالمدك.

وتوجيه المدفع توجيها صحيحا بمساعدة حامل موجود في مؤخرة السري، والتسديد على الهدف، وكذا إشعال البارود في فوهة المدفع، وإغلاق فوهة الاشتعال أثناء عملية التنظيف.

هذا وقد تعددت المدافع العاملة بالجزائر منها المدافع الطويلة المعروفة بـ: القلبرنية، وهي أطول المدافع وأمتنها لكثرة معدنها، حيث تستعمل في الحصون والقلاع، والرمي البعيد لغرض هدم الأسوار، ونوع آخر من المدافع الوسطى المعروفة بالجعب، وأكثر استعمالاتها في هدم الحصون والأسوار، ولا تحتاج من البارود ما تحتاجه المدافع الطويلة، كما تتركب كذلك في مؤخرة السفن حتى سميت أحيانا بمدافع مؤخر السفينة.

وهناك نوع آخر يعد من أحسن المدافع التي استعملت في السفن الجزائرية خلال القرن 16م و17م يدعى مدافع الحجارة، وهو قصير متسع الفوهة يستخدم في هدم الأسوار والقلاع، وفي الدفاع عن الموانئ، وقد كان محببا لدى الجيش الجزائري نظرا لضخامة الكور التي يرميها والخسائر التي يحدثها، حيث يصل وزن كوره إلى القنطارين أحيانا.

وبحسب بعض المصادر فإن المهاريس تطورت عن مدافع الحجارة، والتي شرع في استعمالها خلال القرن 17م، وبدأت تحل في الجزائر محل مدافع الحجارة نهاية القرن 18م رفقة نوع آخر من المدافع يعرف بالقاذفات حجمه وسط بين المدافع والمهاريس. وتعد المهاريس من أثقل المدافع، وقذائفها عبارة جرار صغيرة أو قنابل مملوءة بالبارود تعرف محليا بالبنوبة.

أما برا فقد استعملت مدافع الميدان العاملة أو السائرة على العجلات، وكان أول استعمال لهذا النمط من المدافع على يد خيرالدين باشا أثناء حربه ضد السلطان الحفصي، والقبائل الموالية له³¹.

4- الفرق الخاصة:

أ- الحرس الخاص للباشا (الأونباجية):

خصص للباشا حرس خاص مثله مثل الباب العالي، وكان مسلحوا الباشا يرافقونه أينما حل وارتحل، وكان سلاحهم يتألف من: بندقية قصيرة وسيف مذهب ورماح وخناجر، وكانوا يرتدون عمامة خفيفة، ويحملون درعا مذهب، ولم يسمح لهم أبدا الدخول إلى قصر الجنية بالسلاح نهائيا، وكانت عقوبة الداخل إلى القصر بالسلاح الموت، فإذا وصل الباشا إلى القصر تكلف مفرزة قوية تعرف بالأونباجية بالعسة أي حراسته والمحافظة عليه، وتختلف قوة وعدد هذه المفرزة من باشا لآخر.

وكان عدد هؤلاء الأونباجية على عهد محمد عثمان باشا (1169-1194هـ/1766-1791م)، أربعون رجلا يحملون اليطغانات من الفضة في وسطهم، يقف عشرون منهم على اليمين وعشرون على الشمال، ويقال لكبيرهم الآغا بالإضافة للكاية وخوجة الباب، وإذا جاء وزير من الوزراء فإنه يقف في وسطهم ويجهز بالسلام ويدخل وهم يردون عليه بأعلى أصواتهم، ويدعون له بحسن العاقبة كذلك بأعلى أصواتهم، وهذا الدعاء بحسن العاقبة كثير عند الترك.

وإذا ما حضر الباي يقف وسطهم ويسلم عليهم ويردون عليه السلام ويدعون له مثل الوزراء ويأتيه خوجة الباب ويأخذ من وسطه يطغان الذهب ويكون الوزراء هنالك للغداء، فمن عادتهم أن يتغذوا

كل يوم في دار السلطان، فيأخذ منهم الخوجة يطغانات الذهب، ويصعدون لغرفة هناك ويتغدون في سفرة واحدة ويتغذى معهم الطباخ الكبير للسلطان، أما الطباخ الصغير فيكون واقفا عند رؤوسهم وعليه فوطة من الذهب، يأمر الخدام ليبدلوا لهم أنواع الأطعمة وأنواع الفواكه، فإذا أتموا شراب القهوة خرجوا جميعا لسقيفة دار السلطان فيحملون يطغاناتهم بوسطهم ويخرجون إلا الخزناجي فإنه يذهب إلى موضع حكمه ولا يخرج مع الوزراء إلا يوم الجمعة ويوم الثلاثاء³².

ب- اللغمجية:

وهم الحفرة الذين يعملون في حفر الألغام، والألغام في العرف العسكري فن من فنون الحصار حيث تحاول القوى القائمة بالحصار أن تحفر كهفا تحت جزء من السور، وتدعم سقفه بجذوع الأشجار الغليظة، ثم إشعال النار بهذه الجذوع على أمل أن ينهار جزء من السور³³، وبعد اكتشاف البارود استعمل بدلا عن النار لفاعليته، وجاء عد ابن سحنون: «.. بعث أهل الخير إلى ناحية فجيح من يأتيه بحفرة اللغم لشهرتهم بالحذق في الحفر تحت الأرض فقد قدم عليه بمائة منهم، فقسم عليهم وقت قدومهم أكثر من ألف ريال ومائتين، ودفع لكل واحد منهم ما يجعل منه قميصا وسروالا من الكتان الجيد، ومن لا عدة له منهم دفع له عدة من عنده، وألحقهم بالطلبة يكونون معهم وقت الحاجة³⁴».

ج- النوبة (الحامية):

هي فرق الجيش الإنكشاري التي تقوم بحراسة المدينة، والحصون والقلاع والأبراج، ويسمى الإنكشاري الذي يقوم بالحراسة فيها بالنوبتاجي، وتقسم إلى سفرات، وكل سفرة (Sofra) تحتوي على مجموعة من الجند يتراوح عددهم ما بين 11 و16 رجل، ولكل نوبة قائد يعرف باسم آغا النوبة.

ثم أن الباشا، بعد رجوع القبجي باشي، أراد أن يكتب العسكر النظامي من عسكر زواوة القديم، ذلك أن هذا العسكر من بلاد القبائل الكبرى هو عمدة الأتراك وعدتهم إلى جانب الأتراك الذين لم يكن عددهم يجاوز الثلاثة آلاف رجل، فتكلم مع وزرائه وعماله، وقال لهم أي أريد أن أكتب العسكر النظامي من جند زواوة بأن يبعثوا أولادهم ليكتبوا في دفتر الجيش النظامي.

وولى على ذلك العمل أربعة رجال من آغوات الترك وجعلوا كتابا أربعة شواش وأمرهم بأن يأتوا بأولاد زواوة، فأتوا بهم في اليوم الموعد، وكان الباشا حاضرا، فعندما حان وقت الكتابة استشار خوجة الترك الباشا وقال أين نكتبهم، وهل نجعل لهم دفترا وحدهم، أم نضعهم في دفتر العسكر فأمر الباشا بكتابتهم في دفتر العسكر.

فكتب منهم نحو المائتين وهو حاضر ثم ارتقى للسرايا فلما غاب عنهم ضرب الخوجة الأرض بالقلم الذي بيده، ودعا بالتركية الله مستحق وارسن، وذلك من شدة غضبه على كتابة أولاد العرب، ولأنه بذلك يصبح عدد الأتراك ضئيلا جدا بالنسبة للجند الجزائري الأصل. وبلغ خبره الأمير، وكان عليه أن يعاقبه في نفس الوقت، لكنه سكت وصبر، وكتب منهم نحو ألفين، ثم قطع الكتابة³⁵.

د- حرس الحدود:

(سرحادقولو): وهم يكلفون بحراسة الحدود ومراقبتها، ويمتازون بالسرعة والرشاقة.

خاتمة :

خلاصة القول أن التشكيلات البحرية كانت تختلف اختلافا كبيرا عن التشكيلات الإنكشارية ففي البحرية النظام والطاعة حتى الموت، والرياس مع بحارتهم ينظمون سفنهم ويجهزونها كما يرغبون، وقد بدأ الخلل والاضطراب يتسرب إليهم منذ أن منحت الإنكشارية أحقية مشاركة الرياس غزواتهم البحرية، واستمرت أمورهم بالتدهور إلى حد أصبح بإمكان الإنكشاريين تعيين قائد السفينة وخلعه متى يشاؤون.

ويعتبر الجيش الإنكشاري العثماني الجيش الوحيد في العالم المكون أساسا من عناصر أجنبية، ففي الوقت الذي تشترط فيه جميع الدول خلو جيوشها من العناصر الأجنبية، باستثناء المرتزقة لتضمن ولاءها وإخلاصها للدولة، اشترط العثمانيون خلو جيشهم من العناصر المحلية، حتى يضمنوا انضباطه وفعاليته، ولكن هذه المفاتيح التي تكون سببا في رقي الدولة وهي مقبلة غالبا ما تكون سببا في ضعفها أو زوالها وهي مدبرة.

يقول الطرطوشي: «واعلم أن الدول إذا زالت صارت حيلها وبالأعلى عليها، وإذا أذن الله تعالى في حلول البلاء، كانت الآفة في الحيلة. وقالت الحكماء: إذا نزل القضاء كان العطب في الحيلة، وإذا انقضت مدة الدول أدبرت سنة الغفلة من سنة الحذر، ويغلب الضعيف بإقبال دولته كما يغلب القوي بفناء مدته»³⁶.

لقد فسد نظام الإنكشارية منذ زمن بعيد، وكان محمد بن عثمان باشا قد اتخذ في حقهم عدة إجراءات حازمة لكنها لم تحقق أي شيء، وظل حتى تاريخ 1198هـ / 1738م ينزل بهم أشد العقوبات للحد من عصيانهم المتكرر والمستمر دون جدوى، ورغم ذلك تصدى لهم وقاومهم بكل عند وشجاعة.

وفي عهد علي خوجة باشا (1232 - 1233هـ / 1816 - 1817م) نقلت دار الحكومة من دار السلطان (قصر الجنية) إلى قلعة القصة، وقام بتسليحها تسليحا قويا ومتينا، كما نقل إليها الخزينة أيضا، وأوكل حراستها لأفراد من القبليين، وبعد ذلك التفت إلى تسليح الكراغلة وجمعهم حوله، وحينما اطمأن إلى قوته، وأن مقاليد الأمور أصبحت بيده بلغ الإنكشاريين أنه استغنى عن خدماتهم، ولهم كامل الحرية بالعيش الحر الذي يختارونه لأنفسهم، وقال لهم من يريد البقاء معنا فنحن لا نؤذه، وسيلقى معاملة حسنة، ومن كان يرغب بإحداث الفوضى، فبإمكانه الذهاب إلى الديار العثمانية، وأبلغهم أنه لا يريد عساكر من بلاد الأناضول.

ثم جمع البيولداش في الثكنات، وطرد النساء وأبطل الزنا والخمر وأغلق الخانات والمخازن، وقد أدت هذه الإجراءات إلى تمرد الإنكشاريين لكن حراس علي باشا قتلوا كل من ألقوا القبض عليه، ففر قسم منهم، واتجه القسم الآخر إلى الشرق، وردا على ذلك أعلن جيش المحلة الشرقية العصيان والتمرد، واتجه إلى مدينة الجزائر، وتحاشيا لعدم وصوله وقطع الطريق عليه، أرسل الباشا رسولا إلى القبليين طالبا منهم

إغلاق ممرات بيبان الحديد بوجه جيش الشرق، لكن الجيش عبر ممر الببيان قبل وصول رسول الداوي علي باشا، ولما وصل جيش الشرق إلى الجزائر طالب برأس الداوي، وكان الداوي مستعد لموقف كهذا، وخاصة أنه مدعم من قبل الكوروغلية الذين تجاوز عددهم الستة آلاف كوروغلي.

لقد كان موقف الإنكشاريين ضعيفا لقلة عددهم وتسليحهم، وبعد رفضهم الاستسلام أمر الداوي علي باشا بقصفهم في أماكن تواجدهم بحصن الإمبراطور وباب عزون، ثم شن القبليون والكوروغلية عليهم هجوما كاسحا شتت الإنكشاريين، وقتل منهم حوالي 150 ضابطا، و1200 إنكشاري، وتم إعدام من قبض عليه، في حين طلب الباقون منهم على قيد الحياة العفو والأمان، فمنحه لهم، وبهذه الوسيلة تمكن الداوي من التخلص من الإنكشاريين²¹.

وأقيمت الأفراح ثلاثة أيام، وتقبل الداوي تهاني قناصل جميع الدول على هذا العمل، ومنذ ذلك العهد اعتمد في الجيش الجزائري على عناصر من الجند الوطني.

الهوامش:

- 1- ونترنغ هام وبلاشفورد - سنل، الأسلحة والتكتيكات، ترجمة: المقدم حسن بسام، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1981، ص 14 - 15. وكذلك: ألبرت ميرغلن: حرب المباغثة- ترجمة: المقدم بسام العسلي، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1982، ص 13.
- 2- خليل إينالجيك، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة: محمد. م. الأرنؤوط، ط1، دار المد الإسلامي، بيروت 2002، ص 171.
- السباهي (Sepahi)، أي صاحب التيمار، أو صاحب الأرض، ليس هو مالك الأرض حقيقة، بل هو عبارة عن موظف يجمع ضريبة للدولة، والعاملون في هذه الأراضي عند السباهي أناس أحرار.
- 3- إيرينا بيتروسيان، الإنكشاريون في الإمبراطورية العثمانية، تقديم ومراجعة: قسم الدراسات والنشر بالمركز، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي 2006، ص 14 - 15.
- 4- نفسه، ص 15 - 16.
- 5- أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766 - 1791 سيرته، حروبه، أعماله، نظام الدولة والحياة العامة في عهده، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص 21.
- 6- نفسه، ص 22.
- 7- أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492 - 1792، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1968، ص 6 - 7.
- نقلنا مصطلحات القرصنة وغيرها من المصطلحات التي أطلقها الكتاب الغربيين وبخاصة الإسبان منهم على الجهاد البحري الجزائري كما هي لبرز نوع الدعاية الإعلامية المجانية أو الحرب الإعلامية الغربية في مواجهة البطولات البحرية التي كانت تقوم به القوات البحرية الجزائرية إما منفردة أو بمعية القوات البحرية للباب العالي بالأستانة.
- 8- مولاي بلحميسي، « موقف المؤرخين الفرنسيين من الجزائر في العهد العثماني»، في مجلة الدراسات التاريخية،

- معهد التاريخ عدد 05، جامعة الجزائر 1988، ص 101. وأنظر كذلك:
- Belhamissi Moulay, *Marine et Marins d'Alger à l'époque Ottomane 1518-1830*, TIII, Grandeur et Décadence, Bibliothèque Nationale d'Alger 1996, p 7.
- 9- بدرالدين شعباني، *المصنوعات المعدنية الجزائرية خلال العهد العثماني*، رسالة دكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار- جامعة الجزائر 2009 - 2010، ص ص 66 - 67. (رسالة غير منشورة)
- 10- محمد بن ميمون الجزائري، *التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية*، تقديم وتحقيق: محمد بن عبد الكريم، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981، ص 36.
- 11- عزيز سامح ألت، *الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية*، ترجمة: محمود علي عامر، ط1، دار النهضة العربية، بيروت 1989، ص 132.
- 12- محمد بن ميمون الجزائري، المصدر السابق، ص 42.
- 13- de La CROIX (P), *Description abrégée de la ville d'Alger*, 1965, Manuscrit à la Bibliothèque nationale d'Alger, N3303, p 9 - 11.
- 14- بدر الدين شعباني، المرجع السابق، ص 82.
- 15- عزيز سامح ألت، المرجع السابق، ص ص 132 - 136. وانظر كذلك:
- VENTURE (de P), «*Alger aux 18^{ème} siècle*», in *R.A* (1897) T 41, pp 58 - 63.
- 16- حمدان بن عثمان خوجة، المرأة، تقديم وتعريب وتحقيق: محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1975، ص 117.
- 17- عزيز سامح ألت، المرجع السابق، ص 150.
- القرصنة: هي الصفة التي كان الكتاب الغربيون يطلقونها على الجهاد البحري الذي كان يقوم به سكان شمال إفريقيا ضد القراصنة من الأوروبيين وغيرهم.
- 18- عزيز سامح ألت، المرجع السابق، ص 150، وكذلك: حمدان بن عثمان خوجة، المصدر السابق، ص 118.
- 19- أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا...، ص 186.
- 20- أحمد توفيق المدني، *مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر*، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1974، ص 49.
- 21- أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا...، ص ص 186 - 187.
- 22- أحمد توفيق المدني، *مذكرات الحاج أحمد...، ص 48.*
- 23- أحمد توفيق المدني، *مذكرات الحاج...، ص 49.*
- 24- إيرينا بيتروسيان، المرجع السابق، ص ص 18 - 19.
- 25- وهناك قصة أخرى حول قلنسوة الإنكشارية مفادها: أنه عند تخرج أول دفعة من الجيش النظامي الإنكشاري، حوالي سنة (736 هـ / 1335 م)، عرضت على « الحاج بكتاش » أو « حاجي بكتاش »، «مؤسس الطريقة البكتاشية» مباركتها، فوضع يده على رأس الجندي داعيا للجيش الجديد بالنصر المبين، وتبركا به أمر السلطان بإلباس الإنكشاري قلنسوة من الصوف الأبيض تتدلى من ورائه رمزا للكم المتدلي على رأس

الجندي عند مباركته، وهذا الحاج يعد الأب الروحي للإنكشارية العثمانية كونه من أطلق اسم «يني تشري» على الجيش الجديد، ولما تداولت العبارة الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية حورتها إلى « إنكشاري». وتبركا بهذا الحاج، بنيت أول ثكنة للإنكشارية قرب ضريح حاجي بكتاش، ليوطد ارتباط هذه الفرق العسكرية بالطريقة البكتاشية رسميا منذ القرن 16م، فأصبح يقيم بثكناتهم ثمانية من أصحاب الطريقة لإمامة المجندين في بالصلوات الخمس، كما كانوا يسرون في الاحتفالات الرسمية أمام آغا الإنكشارية لترديد الأدعية.

26- إيرينا بيتروسيان، المرجع السابق، ص ص 21 - 22.

27- نفسه، 29 - 37.

28- أحمد توفيق المدني، محمد عثمان...، ص 185.

29- **البلوك أو الأورطة**: كان أول الأمر يعني تشكيلا عسكريا ثم أصبح يعني قسم ورتبة، وظل هذا المصطلح مستخدما في التشكيلات العسكرية العثمانية حتى سنة 1908م، حيث عوض بالمصطلح الفرنسي كومندان أي مقدم.

30- بدرالدين شعباني، المرجع السابق، ص 85.

31- لخضر درياس، **المدفعية الجزائرية في العهد العثماني**، ط1، دار الحضارة للطباعة والنشر، الجزائر 2007، ص ص 199 - 255.

32- أحمد توفيق المدني، محمد عثمان...، ص 116.

33- ونترنغهام وبلاشفورد- سنل، المرجع السابق، 101.

34- أحمد بن محمد بن علي بن سحنون، **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**، تحقيق وتقديم: المهدي البوعبدلي، وزارة التعليم الأصلي، مطبعة البعث، قسنطينة 1973، ص 248.

35- أحمد توفيق المدني، مذكرات ...، ص ص 165 - 166.

36- أبي بكر الطرطوشي، **سراج الملوك**، حققه وضبطه وعلق عليه: محمد فتحي أبو بكر، ط1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 1994، ص 683.

37- لقي الجيش الإنكشاري في إسطنبول نفس مصير الجيش الإنكشاري على أرض الجزائر، ففي عهد السلطان محمود الثاني (1808 - 1839م) استكملت الإصلاحات العسكرية في الجيش العثماني، ونتيجة لثورة الانكشارية أمر السلطان محمود قواته من المدفعية بضرب مهاجع الانكشارية في إسطنبول مما تسبب في موت غالبيتهم، وفي اليوم الموالي أصدر السلطان مرسوما في 16 جوان 1826م بحل فيالق الانكشارية، وتم تأسيس جيش جديد أطلق عليه اسم العساكر المحمدية المنصورة المدربة. ولمعلومات أكثر أنظر: أحمد توفيق المدني، مذكرات الحاج...، ص ص 131 - 140. وكذلك: عزيز سامح ألتر، المرجع السابق، ص ص 613 - 614.